

المهمشون في سوريا أواخر القرن العشرين شهادات شفوية

Marginalized in Syria at the Turn of the Century: Oral Testimonies

يعد الدكتور عبد الله Hanna من أبرز المؤرخين السوريين الذين اعتمدوا على أساليب التاريخ الشفوي وتقنياته ومناهجه في كتابة التاريخ الاجتماعي السوري الحديث. ففضلاً عن الوثائق والسجلات، اعتمد بشكل كبير على تقنية المقابلة الميدانية المنظمة في التاريخ الشفوي من جهة، والتركيز على تناوله بوصفه تاريخ المهمشين والذين "لا صوت لهم" بما أعني مقارباته التاريخية الاجتماعية للتاريخ السوري المعاصر فيما عرف بقراءة "التاريخ من الأسفل" والذي يجمع بين حقول التاريخ والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا. ويندرج في إطار ذلك أعماله المتعددة عن تاريخ الفلاحين والحركة العمالية في سوريا، وعن ملكية الأرض. وقدم **أسطور** في هذه المادة نصوص شهادات نظمها وجمعها هنا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، مع "مهمشين أو من هم على تخوم التهميش" لأهميتها التوثيقية، ولكونها تتضمن معلومات يمكن الاستفادة منها وتنطوي على فائدة كبيرة لمن يشتغل من الباحثين، ولا سيما المؤرخون منهم، في كتابة التاريخ الاجتماعي السوري الراهن.

كلمات مفتاحية: التاريخ الاجتماعي، التهميش، المهمشون، سوريا، شهادات

Abdullah Hanna, one of the most prominent historians of modern Syria, was a keen adopter of the methods of oral history, and was especially fond of the structured field interview. Hanna's scholarly work was underpinned by his belief in value of the oral history gained through such interviews as the starting point for a history of the "voiceless". In other words, Hanna's work formed part of a global interdisciplinary approach towards a "history from below", and which combined academic history with anthropology and sociology. Hanna was particularly keen to study questions of land ownership and the role of peasants and serfs in modern Syria. *Ostour* is publishing a number of texts which Hanna collected during his interviews of marginalized Syrians during the final two decades of the twentieth century, making them available to scholars interested in Social History and how it can confirm the present-day history of Syria.

Keywords: Social History, Marginalization, Marginalized communities, Syria, Oral Testimonies

* مؤرخ سوري، مقيم في ألمانيا.

A Syrian historian residing in Germany.

مدخل يجمع بين النظري والميداني

دخل مدلول التهميش والفتات المهمشة قاموس التداول السياسي في السنوات الأخيرة من ثمانينيات القرن العشرين. قبل ذلك، نادرًا ما كانت أعنوان في الأدب العربي السياسي على كلمة التهميش أو المهمش. هذا، مع العلم أنَّ هذا اللفظ ورد في بعض الدراسات المترجمة، وكان ذا مدلول اقتصادي، وغالبًا ما عنِّي الفاقة أو الفقر.

ولابد من الإشارة إلى أنَّ سمير أمين روج في ما نشره بالعربية لفكرة المركز والأطراف؛ وبعدها ازداد استخدام تعبير التهميش. ومع تعاظم شكيمة الشركات الرأسمالية العابرة للقارات، أخذت جماهير واسعة خارج المركز الرأسمالي تشعر أنها تعيش على الهاشم، ولا أمل لها في النجاة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، إلا الاتجاه إلى السماء. وتاريخياً كانت العودة إلى الدين - ولا تزال - أهم وسيلة للنجاة من الواقع المريض. واليوم نلمس لمس اليدين الخوف من التهميش، أو الخوف من فقدان الهوية الثقافية يدفع بفتات واسعة نحو التدين والهروب من الواقع. وينحدر التدين المتصاعدة وتيرته ثلاثة مظاهر:

- ✿ انتشار الفرج، بالإكثار من إقامة الطقوس الدينية وحفلات الأذكار والعودة إلى الطرق الصوفية.
- ✿ ظهور كثيف للتجمعات الدينية ذات المحتوى السياسي والخلفيات الاجتماعية، لحضّ الناس على الاحتجاج أو المقاومة تحت المظلة الدينية.
- ✿ ظهور تنظيمات دينية متطرفة، تنهل من الجوانب المتزنة والمحجورة من التراث، ثمَّ تسعى لانتقاء حوادث معينة اتصفَت بالعنف في زمان كان له مبرراته، وتتخذها نماذج لتصرفاتها المرعبة. وتزداد خطورة هذه الجماعات، مع استخدام التقنيات الحديثة وما أُنتِجَ من وسائل الدمار، لاستخدامها تحت راية الدين والتراث بحسب فهمها، وإلحاد الخراب بالبشر والحجر والشجر. ويمكن القول إنَّ الشعور بالتهميش، سواءً أكانت أسبابه داخلية من الأنظمة الحاكمة والتفاوت الطبقي، أم خارجية بسبب هيمنة القوى الرأسمالية المتوجهة، هو من العوامل الرئيسة المهمة التي تدفع إلى التدين أولاً، ومن ثمَّ تزوج بفتات معينة في أتون نيران حروب تحطم المجتمعات وتقوم بمحو ذاكرة الحضارات السالفة.

ولا يسعنا هنا الحديث عن أسباب اتساع عملية التهميش في المجتمعات العربية، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وما أعقِبَهما من حوادث جسام.

هذه الدراسة ليست إلا تصویراً انتقائياً - محكوماً بإمكانات كاتب هذه الأسطر الباحث من دون مساعدة حكومية أو خاصة - في الوصول إلى مختلف الفئات المهمشة، وتتبع بعض مظاهر التهميش الجارية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وبحسب علمي لا توجد دراسات منشورة عن عملية التهميش والفتات المهمشة، إلا في مجلة جدل، بإشراف العراقي الماركسي عصام خفاجي^(١). وقد شاركت في هذا العدد بدراسة مقتضبة عن مظاهر التهميش في المدن والأرياف السورية. وأورد عنوانين بحثي في مجلة جدل ومقطفات من فقراته على النحو التالي:

- ✿ نظرة تاريخية إلى التهميش في سوريا الحديثة. تناولت مفهومي العامة والخاصة في تاريخنا العربي، واستعرضت أوجه التهميش في المراحل المتعاقبة من تاريخ سوريا الحديث.

¹ عصام خفاجي (مشرف)، "هامشون في المدن العربية"، مجلة جدل، العدد 4، دمشق (1993)، إضافة إلى الدراسات النظرية في هذا العدد من مجلة جدل، نجد أيضًا عدداً من الدراسات الميدانية، نذكر منها: دراسة سهير سلطى اللل، "قاع المدينة: بحث ميداني حي في بعض نماذج الفئات الهمامشية في الأردن"، والمقصود مدينة عمان، وكذلك دراسة أحمد بعلبي، "مورفولوجيا التألف والتتافر داخل ضاحية حاشد في مينا الجبابير بيروت"، ودراسة طويلة لثروت إسحق، "أبعاد الهمامشية: حالة مصر"؛ وقد درس إسحق حالة "مجتمع الزبائن"، في ما أسماه الهمامشية الحضرية، و"عمال التراحل" في ما أسماه الهمامشية الريفية.

- التكاثر السكاني وأزمة السكن وعلاقتها بالتهميش. وهذا ما سنتلقي عليه الدراسة الحالية للأضواء.
- التكاثر السكاني والتهميش بين طبيعة الأرض الزراعية وخصوصيتها، ونظام الملكية.
- التهميش في المراحل التعليمية. ويجري التهميش هنا بين اليافعين والشباب في مراحلين: الأولى مرحلة التسرب من المراحل التعليمية ما قبل الجامعية، والثانية مرحلة الدراسة الجامعية التي كانت تتمتد عند الكثريين عقداً من الزمن، وأخيراً مرحلة ما بعد التخرج في الجامعة. وتعيش أعداد كبيرة من طلاب الجامعات تحت وطأة ظروف الحياة الصعبة، وهاجسها إيجاد العمل بعد التخرج والقلق من المستقبل الغامض.
- العلاقة بين النشاطات الطفولية والتهميش.

بعض أوجه التهميش المستخلصة من الدراسات الميدانية

ننقل تعريف للتهميش، من وجهة نظر بعض من التقيناهم:

- ثمة أنواع متعددة للتهميش، منها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والديني والإثنى... إلخ.
- المهمش هو كل إنسان غريب في وطنه، ويشعر بأنّ هذا الوطن ليس وطنه.
- المهمش هو كل إنسان لا يستطيع الوصول إلى حقه، حتى لو كان صاحب حق واضح وضوح الشمس... أما إذا كان لدى الإنسان واسطة للوصول إلى حقه أو ما يتغير فهو غير مهمش، وإذا لم تكن لديه واسطة أو مسؤول يدعمه فهو مهمش.
- المعلمون والمدرسون عموماً مهمشون. وأكثر الشرائح تهميشاً مدرسون التربية الموسيقية والرسم، ويليهم مدرسون التاريخ والجغرافيا الذين لا مورد إضافي لهم.
- المهمش هو خارج فعالية السلطة أو الدولة، وليس له أي تأثير في المجتمع، ولا أحد يعطيه دوراً.
- "أنا لست مهمشاً في محل [مهنته كواه ملابس]، ولكنني خارج المحل لا أشعر بأي قيمة لي. وأحياناً أشعر بالتهميش في المحل عندما يأتي أحد أصحاب النفوذ ويطلب بهلجة الأمر أن أكوني ما أنت به في برهة قصيرة. إنه يتصرف من دون أن يراعي شعوري ووضع العمل."
- الإنسان المهمش هو الإنسان الذي لا يعمل في المجال الذي أهلاً له، ويوضع في مكان لا علاقة له بتخصصه ... الأنظمة تسبب التهميش.
- التهميش لا يعني بالضرورة الفقر، بل له مدلولات وأنواع متعددة: فمنه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والديني والمناطقي ... وهذا ما يقودنا إلى القول بنسبية التهميش.
- التهميش نسبي، بمعنى أنّ تاجراً يربح بطرق مشروعة مئة ألف ليرة سورية شهرياً يجد نفسه مهمشاً، مقارنة بتاجر آخر على صلة بذوي النفوذ ويفوق ربحه الشهري المليون ليرة، وفي ذمة بعضهم مليون دولار. ولذلك نجد التجار القدماء الذين لم يدخلوا في علاقات متشابكة ومتبادلة المصالح مع البيروقراطية الحاكمة يتذمرون مع أنّ أرباحهم جيدة، وبينما ينبدون سوء حظهم لأنّ دورهم على الهاشم بعد صعود "الطبقة الجديدة" التي لا تترك لهم إلا الطعام وتستأثر باللحم.
- التهميش ليس أزلياً، أي إنّ ثمة حركية داخل المجتمع لا تعرف السكون ... فالتهميش يمكن أن يستمر لفترة ثم يزول، وأحياناً يُطْلَّ برأسه من جديد.
- التهميش ذو شكل هرمي، ومن يقف في منتصف الهرم يجد نفسه مهمشاً من الأعلى، وهو مهمش الأدنى منه مرتبة.

- ✿ التهميش ذو شكل دائري، فشلة مركز وأطراف، وكلما ابتعد الإنسان عن المركز أصبح أكثر تهميشه. ويمكن للفرد أن ينتقل من دائرة إلى أخرى: إما في اتجاه المركز، وإما في اتجاه الأطراف. وفي هذا الإطار يبرز أيضًا التهميش المنقلي.
- ✿ ثمة فئات مهمشة اجتماعياً مثل النَّوْر (الجبر). ولكن بعض مجموعات النور ليست مهمشة اقتصادياً. فبعضهم اغتنى غنى فاحشاً بفضل حفلات الغناء والرقص التي يقيمهونها.
- ✿ هل العنوسة للفتيات وكذلك الشباب، والتي سببها الصناعة الاقتصادية وغيرها، هي صورة من صور التهميش؟
- ✿ هل المرأة في مجتمعنا مهمشة؟ بالتأكيد لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال الحساس والمعقّد بالطلاق. إذ لا بدّ من مراعاة المستويات الحضارية المختلفة في مجتمعاتنا العربية، والخصوصية التاريخية لكل منطقة ولكل مرحلة تاريخية من حياة مجتمعنا.
- ✿ ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ "نظام الحرير" ترك بصماته المباشرة وغير المباشرة في المجتمع. ومع أنّ عصر النهضة العربية في منتصف القرن العشرين قاد تدريجياً إلى تحرر المرأة، إلا أنّ التغيير لم يكن شاملًا وعميقاً. وبقيت أكثريّة المجتمع تنظر إلى المرأة على أنها قيمة نسبيّة لا قيمة مطلقة كالرجل، فتعيش تابعة تدور في فلك الرجل لا في فلك المجتمع⁽²⁾.
- ✿ ويلاحظ أنّ تهميش المرأة في المدينة أوضح منه في الريف، إذا استثنينا المرأة الموظفة أو التي تتلقى أجراً. وسترد في الدراسات الميدانية التالية صور لوضع المرأة الريفية من هذه الزاوية.
- ✿ ظهر لي، أثناء زيارتي الأخيرة إلى دمشق في ربيع 2015، أنّ الفتيات أخذن "يتمردن" على أنماط الملابس التي فُرِضَتْ عليهنَّ في فترات تراجع السفور والتشدد على الألبسة الواسعة الداكنة وما يتعلّق بها. والأكثريّة الساحقة من الفتيات السنيّات اللواتي شاهدتهنَّ في دمشق واللاذقية وبلدات القلمون يلبسن البنطلون الجينز الضيق والثياب المتعددة الألوان والملتصقة بجسم الفتاة ساعية لإظهار مفاتن جسمها، مع تغطية شعر رأسها باشكال لافتة للنظر. وهذه الظاهرة، كما أرى، إشارة إلى بداية التمرد على الأحكام التي ظهرت بعد انحسار أفكار النهضة العربية وصعود الأصولية المتزمتة ... هل لذلك علاقة بالتمرد على تهميش المرأة؟ ... لقد حاولت الاستفسار وطرح الأسئلة بشأن هذه الظاهرة، ولكن المأساة التي يعيشها البشر في سوريا المحظمة، لم تسمح لي بالخصوص عميقاً في هذا الموضوع الحساس. وأرى أنّ ظاهرة اللباس الضيق والمتعدّد الألوان تشبه طرح أعداد من الفتيات للملاءة في أربعينيات القرن العشرين. فهل نحن أمام عهد جديد على الرغم من التزمر والتجبر والتمسك بالقشور دون اللباب؟

نماذج من التهميش اعتماداً على الدراسات الميدانية

هذه النماذج المستمدّة من الواقع في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، والمنقوله حرفيّاً أو بتصرف من أفواه أصحابها، نوردها لأخذ فكرة عن المهمشين أو من هم على تখوم التهميش. ولأسباب عديدة، رأينا حذف أسماء من التقيناهم واكتفينا بالوقائع.

لقد جرى جمع هذه العينات في وقت اشتُدَّت فيه الهجمات على الفكر النهضوي العربي من جهة، متلازماً مع التضييق على المنهج العلمي المتطلع إلى فهم الواقع وتطويره من جهة أخرى. فقد اتسع دور الظالمية، واللاعقلانية هي سيدة الموقف، والحديث عن نهاية الأيديولوجيا أصبح رائجاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وقد تناهى هؤلاء أنّ الأيديولوجيات قديمة، ظهرت منذ بدأ استغلال الإنسان، وانقسام المجتمع إلى طبقات، وطموح المقهورين إلى تشييد مجتمع السعادة والرفاه.

² منير كرامة، "مراجعة كتاب، الجنور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث"، لحمد يحيى كمال، مجلة الفكر العربي، العدد 39 / 40 (حزيران 1985)، ص 355.

الحالة الأولى: أيهما أجمل غرفة كلب "المعلم" في الثكنة أم غرفة المجند في أحياء دمشق الفقيرة؟

السلمية مدينة معروفة، تقع إلى الشرق من حماة، هجرها قسم من أهلها في أواخر خمسينيات القرن العشرين، بعد أن جفت المياه الجوفية فيها بسبب الاستخدام الأرعن لضخ المياه وسقاية القطن.

انتسب المهاجرون إلى القوات المسلحة وأجهزة الأمن ووظائف الدولة. وعندما لم تستطع أجهزة الدولة في أواخر سبعينيات القرن الماضي استيعابهم - كما هو الحال بالنسبة إلى غيرهم - اتجهوا للعمل في مؤسسات القطاع العام. وبعد أن توقفت هذه المنشآت عن قبول اليد العاملة الجديدة، في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، بدأ الشباب - في السلمية كما في غيرها - يبحثون عن أعمال متنوعة، منها المنتج ومعظمها غير منتج أو هامشي.

تتميز السلمية وقرها بارتفاع مستوى الثقافة وحب المطالعة والحوار الذي ورثوه على ما يبذلوه من تراثهم الإسماعيلي. وقد زارت السلمية في ربيع 1977 محاضرًا في المركز الثقافي العربي. وبدا واضحًا كثافة الحضور وحبهم التزود بالمعرفة ورغبتهم في النقاش. وكونهم يعيشون على أطراف المعمورة، فإن كرم أهل البادية كان جليًا في طباعهم، وتجلى ذلك في حفلة العشاء العامرة باللحم المشوي وأقداح "حليب السباع" التي تُطلق اللسان على عواهنه للحدر، فكيف بأهل السلمية الشغوفين بالنقاش الفكري السياسي؟

أحد شباب السلمية⁽³⁾، وهو معاون مهندس في معمل الإطارات (الكاوتشوك) في حماة، التقىه بعد المحاضرة بعده سنوات، وزرته في غرفته في دمشق أثناء تأديته خدمة العلم. غرفته المستأجرة في أحد الأقبية لا ترى النور والشمس، ويدخلها الهواء من طاقة صغيرة في أعلى الغرفة. روى هذا الشاب المجند أنه كان سائراً في الثكنة فشاهد بيته صغيراً أنيقاً مخصصاً لإقامة كلب "المعلم" (الضابط) قائد الثكنة. وعندما صاح الشاب بلاوعي: "يا إلهي، هذا الكلب يعيش في غرفة أفضل من غرفتي بعشرات المرات".

بعد انتهاء خدمته العلم بمدة، توقف معمل الإطارات وأصبح الشاب عاطلاً عن العمل، فوجد نفسه مدفوعاً ومرغماً على ممارسة أحد النشاطات الطففية، المتمثل ببيع الدخان المهرّب ... وبعدها ألقى عصا التسيير في إحدى دول الخليج للعمل فيها، وتغير وضعه من حال إلى حال.

الحالة الثانية: حول الطبقة العاملة وهوامشها الطففية

عند الحديث عن بنية الطبقة العاملة وتركيبتها النوعية في سوريا، أثناء تكون هذه الطبقة في منتصف القرن العشرين قبل أن تحلّ بها المصائب، لا يكفي معرفة وضع العامل ومقدار ما يتقاده من أجر، بل لا بدّ من التعرف إلى أمور عدة منها:

- الأماكن أو الأموال التي ورثها العامل عن والديه.
- عدد أفراد الأسرة اليافعين الذين يتقادون أجرًا، أو يقومون بأعمال هامشية أو طففية تؤدي إلى زيادة دخل الأسرة وتحسين أوضاعها، والحلم بالصعود نحو الأعلى في السلم الاجتماعي.

روى لي أحد الأصدقاء⁽⁴⁾، وهو ذو باع طویل في معرفة أحوال الناس وتحليلها. وأنقل ما ذكره الصديق عن حالة أحد العمال المقيم بجواره في أحد أحياط المؤس إلى الجنوب من دمشق ما يلي:

3 شاب من السلمية، مقابلة شخصية، دمشق.

4 صديق الكاتب، مقابلة شخصية، دمشق، 25/9/1989.

عامل أصله فلاح من حوران، عمل في شركة الدبس للنسيج بدمشق، وكان أجره الشهري مع التعويض العائلي مقدار 1800 ليرة سورية، وهو يعيش أسرة مؤلفة من ثمانية أفراد بمن فيهم الزوجة.

ثلاثة من أولاد العامل يقومون بأعمال هامشية تؤدي إلى زيادة دخل الأسرة ما يعادل أربعة أضعاف راتب الأب، وهم على التوالي:

- ✿ الابن البكر ترك المدرسة في الصف الثامن، وشرع يبيع الدخان المهرّب في الشوارع، ووصل ما حصل عليه من ربح أكثر من ألفي ليرة سورية.
- ✿ الابن الثاني ترك المدرسة، وبدأ يشتري ربطات الخبز بسعرها الرسمي 7 ليرات، ويبيعها بسعر عشر ليرات إلى الفئات التالية التي لا يرغب أفرادها في الوقوف مدة طويلة في صفوف متراصدة وغير منتظمة للحصول على ربطات خبز. وهذا الطفل اليافع لا يطمح إلى تعلم مهنة فيها نفع له وللمجتمع، فقد استأثرت النشاطات الطففية بجماع قلبه.
- ✿ الابن الثالث لعامل النسيج أخذ يعمل في العطلة الصيفية لعام 1989. وهو في الصف السادس في جمع أحذية البلاستيك القديمة أو المستهلكة من البيوت والشوارع وحاويات القمامات، ويبيعها بالوزن إلى أحد معامل تحويل البلاستيك إلى مزهريات بلاستيكية وما سواها. وبهذه الطريقة تمكن الابن الثالث في العطلة الصيفية من أن يربح أكثر من أخيه. لا أعلم ماذا حلّ بهؤلاء الفتى. وبحسب خبرتي، فإن روح العمل غير المنتج والهامشي أخذت بمجامع قلوبهم وتفكيرهم. وعلى الأرجح لن يفكروا في شق طريقهم إلى العمل المنتج سواء في الحرف أو في الزراعة. ويلاحظ أنّ قسمًا من القوى الشابة تغلغل في أعماقها النشاط الطفيلي، وأصبح لهذه القوى الشابة قاعدة واسعة في المجتمع، وباتت تهدده بالعواقب الوخيمة.

الحالة الثالثة: بائع الدخان المهرّب والموظف في شركة سادكوب الحكومية

نلاحظ ظاهرة استشرت، وتمثل بكتلة الشباب الذين يبيعون الدخان (السجائر) الأجنبي المهرّب في الساحات ومفترق الطرق، وعدهم يفوق المئات في دمشق لوحدها.

سألني أحدهم⁽⁵⁾ هل أريد شراء الدخان؟ فتظاهرت بالرغبة في الشراء وسألت عن الأسعار، وسرعان ما دخلت إلى قلب الشاب عندما بادرته بالسؤال: ألسنت من نازحي طبريا؟ فأجاب بالإيجاب، وكانت ملامح وجهه ولهجته تدل على ذلك⁽⁶⁾. ودار حديث طويل بيننا، خلاصته التالية:

عمر الشاب 32 سنة، متزوج وله ثلاثة أطفال، ويسكن مع والديه في حي الحجر الأسود، أحد أحزمة الفقر إلى الجنوب من دمشق. وهو موظف (عامل) في شركة سادكوب لتوزيع النفط، وله إجازة في الحقوق من جامعة دمشق، ويحتل وظيفة رئيس دائرة، إضافة إلى أنه رئيس اللجنة النقابية. يتضاعي راتبها قدره 3300 ل.س. غادر العمل صباحًا تحت ستار مهمة تخص العمل، وجاء إلى ساحة القصور لبيع الدخان الأجنبي المهرّب. يشتري البضاعة من "القادمين" من لبنان ومعظمهم جنود. ثمن "باكيت" أحد الأنواع يشتريه - كما قال - بـ21 ل.س ويبيعه بـ25 ل.س. قال إنه يربح شهريًا بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ل.س، وأحياناً يتجاوز الربح هذا الرقم. معنى ذلك أنّ دخل هذا الشاب من سادكوب ومن التهريب يبلغ سبعة آلاف ليرة سورية، وهو ما يعادل راتب أستاذ جامعة. وعلى الرغم

5 شاب من طبريا، مقابلة شخصية، دمشق، 10/8/1989.

6 درست مادة التاريخ ثلاث سنوات خلال الفترة (1965-1970)، وهذه السبب تمكنت من معرفة أصل هذا الشاب، إذ إنّ قسمًا كبيرًا من نازحي الجولان سكناوا في البدء بعد حرب حزيران 1967 في درعا ومحيطها. والطريف أنني كنت أثياء توجيه الأسئلة إلى التلاميذ أسائل: ماذا يعمل والدك؟ وعندما يجيب: لا عمل له، أعرف أنّ والده مهرّب للبضائع بين درعا والأردن أو العكس.

من قيمة هذا الدخل، فإن ثيابه ليست نظيفة، وملامحه تدل على المؤس. أضاف أن ما يربحه من بيع الدخان يدفعه اشتراكاً في إحدى الجمعيات التعاونية السكنية، لأنه يرغب في الانتقال مستقبلاً من بيت والديه إلى بيت حديث.

سألته كيف تعامل مع زوجتك وأولادك في البيت؟ تعاملهم بصفتك موظفاً، أم مهرباً، أم باع دخان مهرب؟

أجاب - على ذمته - أن زوجته ووالديه لا يعلمون أنه يبيع الدخان المهرب، ويتعامل معهم بصفته عاملاً ورئيساً للجنة النقابية.

سألته: أنا محاضر، إذا استمعت إلى إحدى محاضراتي التي تنتقد التهريب والمهربين، وأدعو إلى الحماية الجمركية لإنجاحنا الوطني وبناء صناعة وطنية، وإغلاق بوابة لبنان التي تدمر اقتصادنا، ألا تكرهني؟

أجاب (والله أعلم إن كان مجاملأً أم صادقاً): لا، أنا مع سياسة تحسين الدخان الوطني، وأتمنى أن يكون من نوعية جيدة. ولكن ما العمل؟... أريد أن أعيش.

بعد أن ودعته ذهبت واشترىت "كرتونة" أو "صفت" بيض بسعر 75 ل.س. فأسرع نحوه، وقال: "لماذا تشتري البيض - 75 ل.س، وسعره الرسمي (تسعيرته) 55 ل.س؟"، قاصداً من وراء ذلك مداعبتي، وتوجيه النقد إلى، مبرراً عمله في البيع بطريقة "غير مشروعة".

بعد أسبوع من هذا اللقاء، التقى شاباً آخر في ساحة بيع الخضراء في حي ركن الدين بدمشق. كان يبيع على الرصيف - ما يُعرف بالبسطة - الدخان والسمنة والجبننة والزبدة، وجميعها مواد مهربة من لبنان (غالباً بواسطة الجنود الذين يخدمون في الجيش السوري المقيم في لبنان آنذاك ويعيّونها لهؤلاء الشباب). والطريف أن هذا الشاب الذي يبيع المواد المهربة على قارعة الطريق حاصل على دبلوم من كلية التجارة من جامعة دمشق.

إن ظاهرة مهربى الدخان وغيرها من المواد الآتية من لبنان وبائعيه في الشوارع والساحات أصبحت ظاهرة عامة، تستوعب آلاف الشباب الذين لا يجدون عملاً أو الذين دخلهم لا يكفيهم، ويعذّبون هذا العمل وسيلة للعيش. هذه الظاهرة من مؤشرات تهميش الطبقة العاملة الشابة وتحويلها إلى "فئات رثة" لاوعي اجتماعي لديها، ولا حس وطني، ولا أخلاق، ولا قيم، ولا هم يحزنون.

الحالة الرابعة: "بائع الخضار على الرصيف"

شاب عمره 22 سنة⁽⁷⁾، من قرية المشرف إلى الشرق من حمص، حصل على شهادة الدراسة الثانوية، ثم تخرج في المعهد المتوسط الزراعي أملاً الحصول على وظيفة، لكن من دون جدوى. وعندما تدمر من وضعه أمام إداري المعهد قالوا له: "اذهب بع خضرة". ربّما لعلاقة الخضراء بدرايته الزراعية البسيطة.

غادر هذا الشاب قريته، وألقى عصا التسيار في دمشق، وسكن مع أربعة من رفاقه في غرفة صغيرة في حي القابون إلى الشمال من دمشق أجرتها 520 ل.س. أخذ هذا الشاب يشتري الخضراء يومياً من سوق الهاال الجديد بمبلغ يقارب 500 ل.س، وينقلها بسيارة شحن صغيرة (سوزوكى) إلى ساحة القصور حيث "يبيسط" (يعرض) بضاعته على جانب الطريق. وإذا لم يوفق في بيع كل شيء، يعيده إلى سوق الهاال، ويعود به في اليوم التالي.

عندما التقى به، كان يبيع البندورة والخيار والكوسا. لم يكن لديه ميزان، ولهذا كان يستخدم ميزان جاره المُرخص له بالبيع على الرصيف. قال الشاب إن ربحه يراوح بين 100 و150 ل.س. ولكن إذا أتت شرطة البلدية، تصدر له البضاعة لأنه لم يحصل على رخصة، وعندها يخسر من رأس ماله.

سؤاله: ما هو هدفه في هذه الدنيا؟ وكيف ينظر إلى المستقبل؟

أجاب: إنّ هدفه الإنفاق على إخوته الثلاثة الصغار وتعليمهم، وهو لا يفكر في الزواج أو غيره من الأمور.

يطفح وجه الشاب بالبراءة، ويتمتع بصحة جيّدة وقوّة عضليّة باديّة في حركاته. فأُسّفت على هدر هذه الطاقة، وضياع هذا الشاب في أعمال غير مُنتجة، يمكن أن يقوم بها ابن السنتين سنة.

وليس حالة هذا الشاب نادرة، بل هي ظاهرة عامة منتشرة في كل مكان. فساحات المدن وشوارعها تعج بهؤلاء الشباب الذين يزاولون أعمالاً هامشية، ولا يلبثون أن يتحولوا إلى بضاعة معروضة للبيع لمن يدفع الثمن.

الحالة الخامسة: أصوات تئن في مؤتمر الخدمات الطبية النقابي⁽⁸⁾

بدأ أحد النقابيين بكلمة سياسية عامة، لا جديد ولا محتوى لها، وهي عادة متّبعة عند النقابيين المُتحدين باسم السلطة والمتطلعين إلى ما تقدّمه لهم من امتيازات.

قال أحدهم: "اللجان النقابية في مستشفى الجامعة لا تأخذ دورها. هناك خلل في العلاقة بين النقابة ورب العمل".

قال ثان: "المريض الذي يدخل إلى المشافي، وهو غير مدّعوم ومن دون واسطة، يُهمل. أحد المرضى بقي في المستشفى الجامعي عشرين يوماً من أجل إجراء عملية فتق، وخرج من المستشفى من دون إجراء العملية، بسبب وجود متسطلين لا يعملون إلا عن طريق الواسطة".

أكثرية المؤتمرين رفضت فرض نسبة 1 في المئة من راتب النقابي بدلاً من ثلاثة ليرات سورية. إحدى الممرضات قالت: "إن قطع واحد في المئة من الراتب اشتراكاً للنقابة معناه سرقة لقمة العامل. ليس هدفنا خلق بورجوازية جديدة في النقابة، من جراء قطع واحد في المئة من الراتب ... نحن نطالب بالموازنة بين الأسعار والأجور".

النقابيون الجالسون على منصة القيادة كانوا ينادون من أجل اقتطاع الواحد في المئة من أجور العمال "الصالح العمل النقابي" بحسب قولهم، ولكنهم أخفقوا في نيل موافقة أكثرية الأعضاء ... أحدهم قال: "هناك تناقض بين من يركبون المرسيديس (إشارة إلى مسؤولي السلطة) ومن لا يجدون مكاناً في الباص. لم تعد الناس تثق بالنقابات".

الحالة السادسة: جامع النفايات

ذكر اسمه⁽⁹⁾ من دون شعور بالإحراج. وهو من مواليد 1977 في دمشق، ولكن والده من النازحين من إحدى القرى المطلة على جسر بنات يعقوب في الجولان. وهو يقوم بجمع الأشياء "الثمينة" من حاويات القمامات، وبيعها لمن يقوم بإعادة تصنيعها. زوجته لا تعمل. أخته الكبيرة خديجة تشتعل في معمل البلاستيك، وأجرتها الأسبوعية 400 ل.س. أخوه نوح في الصف الرابع، اخته آمنة في الصف الأول، أخته عائشة صغيرة لم تدخل المدرسة بعد.

في حالة أخرى مشابهة، شاهدت رجلاً يتعدد مع ابنه ليجمع "الثمين" من حاوية القمامات قرب بيته في حي العدوي. وبعد مدة أخذ الصبي يأتي بمفرده من دون أبيه بعد أن تعلم "المهنة". لافته وتحدث معه وتبين لي أن في عقله خللاً بسيطاً. طلب مني إعطاءه أكلاً أو مواد تموينية. ذكر لي أن أهله يسكنون خارج دمشق إلى الجنوب من السيدة زينب، وبيتهم "ملّكم" وهو مؤلف من غرفتين ومطبخ وبيت

8 انعقد في دمشق في 7/2/1981 في مبنى اتحاد نقابات عمال دمشق.

9 شاب دمشقي، مقابلة شخصية، قرب الحاوية - حي العدوي - دمشق، 8/4/1992.

حوش، أي أرض دار. وفي هذا الحوش بئر يضخون الماء منها للشرب والاستعمالات المنزلية. الكهرباء "يسرقونها" بحسب تعبيه من خط الدولة، كما هو حال معظم القاطنين في هذه التجمعات السكنية العشوائية غير المرخصة.

هذا الصبي يجمع، كما ذكر لي، البلاستيك الذي يسميه الشمع، ويباع الكيلوغرام بـ 11 ل.س. كما يجمع الخبز اليابس ويباع الكيلوغرام بـ 4 ل.س، والألومنيوم بـ 12 ل.س، والنحاس بـ 16 ل.س. وأردف أنه يحصل مع والده يومياً على 150 ل.س.

الحالة السابعة: "الزبّال" عامل التنظيفات

الاسم (س)⁽¹⁰⁾ من مواليد 1959 في إحدى القرى المطلة على الضفة الشرقية لبحيرة طبريا، وهو من النازحين بعد احتلال الجيش الإسرائيلي الجولان في حزيران 1967. وبعد حدث قصير، دعوته لشرب فنجان قهوة في حديقة منزلي.

كان والده فلاحاً قُتل أثناء احتلال الجيش الإسرائيلي الجولان عام 1967. ولم يكن (س) مسجلاً في دائرة النفوس بعد ولادته، وبقي مكتوماً حتى نزوله من قريته مع أمه وإخوته من الجولان إلى دمشق. سكنا في بزرة في إحدى شقق الأبنية العظم، أي غير مكتملة البناء مثل غيرهم من النازحين.

دخل (س) المدرسة الابتدائية، ووصل إلى الصف السادس، وعندما اكتمل عوده شرع في العمل أجيراً في مهن الحداوة، والتجارة، والبلاط. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره التحق بالعمل الفدائي، وبقي ثمانى سنوات إلى أن أصيب برجله فترك العمل الفدائي. وعلى الأثر استدعي لخدمة العلم لمدة أربع سنوات قضها في خدمة شاليهات الضباط على الساحل السوري. بعد خدمة العلم، عمل لمدة ثلاثة سنوات مع شركة قاسيون الحكومية للبناء، وكانت تضمّ أعداداً كبيرة من العمال النازحين من الجولان غير الموصوفين (ليس لديهم خبرات). وشركة قاسيون شركة إنشائية، ظهرت مع عدد من الشركات العامة في سبعينيات القرن العشرين، واستوّعت فائض اليد العاملة آنذاك. بعدها عمل (س) في "البلدية" بحسب تعبيه، أي عامل تنظيفات، يعمل في الليل بأجر شهري قدره 2700 ل.س. وذكر أنه في عدد من ساعات النهار يبحث عن "ضالته" من منتجات البلاستيك، والنايلون، وعلب التنك، وأشياء "ثمينة" أخرى، يبيعها للمعامل التي تعيد تصنيعها. والمعدل الشهري لما يحصل عليه من نقود قرابة 2500 ل.س.

تزوج (س) عام 1989 من ابنة عم، وهي أمّية وكانت عاملة زراعية قبل الزواج وتوقفت عن العمل. وأردف موضحاً: "كرامتي الشخصية لا تسمح لي بتشغيلها لا هي ولا أختي"، كما ذكر حرفياً. أُنجب (س) في مدة قصيرة بين عامي 1989 و1992 صبيين وبنّا كان عمرها أثناء الحديث معه شهراً.

بعد زواج (س) ترك (انفصل عن) أهله واستأجر في ضواحي دمشق غرفتين يبلغ مئه ل.س. ثم شرع في بناء غرفتين ومطبخ وحمام من دون رخصة من البلدية. والواقع أنّ البلدية لا وجود لها في المنطقة التي يعمر فيها إلى الجنوب من مقام السيدة زينب. بلغت تكلفة البناء 125 ألف ل.س، واستغرق البناء مدة سنة وخمسة أشهر. وكانت الأعمال العادمة أثناء البناء يُنفذها (س). يحصل (س) على الماء من بئر جيرانه، أمّا الكهرباء فهي سرقة من خطوط كهرباء الدولة. وهذه ظاهرة عامة، كما ذكرنا، موجودة في كل مكان من أماكن السكن العشوائي المحيطة بدمشق والمبنية بلا رخص. وفي هذه الأحياء، تسكن أعداد هائلة من البشر، يمكن للباحث المتواضع القدير أن يدرس حالتهم الاجتماعية.

على الرغم من أنّ (س) وصل إلى الصف السادس، فإنه نسي القراءة والكتابة، شأنه شأن عشرات الآلاف من أقرانه الذين تسربوا من المدارس ونسوا بعد مدة ما تعلّموه. يسمع (س) أحياناً إذاعة صوت الجبل وإذاعة "مونتي كارلو" ذات الشعبية الواسعة. وعندما سأله بصفة

غير مباشرة وبطريقة دبلوماسية عن شعوره ورأيه في التهميش، كان جوابه أليّاً مع اعتداد بالنفس. وحول مستقبله أجاب: "من جد وجد، ومن سار على الدرب وصل. ممكّن ابني يسكن في المستقبل هنا في حي العدوى إذا علمته". وأضاف: "أنا عُمرت غرفتين وبعثهم وحسّنت وضعني".

الحالة الثامنة: "مغمضة بالدم لقمنا"⁽¹¹⁾

قالت إحداهنّ: "الأجر البالغ 500 ل.س لا يكفي عائلة مؤلفة من خمسة أفراد. الرأسمال الطفيلي يلتهم كلّ شيء". قال أحدهم: "كثير من العمال يتذمّر العمل في القطاع العام للبحث عن اللقمة الشريفة. ترحب في استقرار العمال وعدم تشريدهم. فالأجر متذبذبة والغلاء فاحش...". قال أحدهم: "في الثورة الفرنسية قيل لهم روحوا كلوا كاتو. فمن أين نشتري الكاتو؟... زيدت الرواتب ولكن الأسعار ارتفعت أكثر... هذه بدها مطالبة وليس كتابة فقط".

أحدهم قال: "نحن عمال لسنا معلقين ولا مطلقين". وذلك في معرض حديثه عن التأمينات الاجتماعية. أحد عمال شركة قاسيون طالب بالأمور التالية: "الكسوة، والإجازات، وعدم الفصل من الخدمة، وأخذ طبيعة العمل، وحساب العمل الإضافي وفق معدل الأسعار الحالية، وتأمين النقل، ومراعاة العامل المتقدم في السن".

كنت بصفتي مستمعاً وناقاً لبعضهم مما أسمع، أشعر أنّ أحاديث العمال هذه نابعة من القلب، لا تَصْنَعُ ولا مواربة ولا تزّفُ للسلطة. وبذا واضحًا أنّ هذه الشرائح الاجتماعية جائعة وبائسة.

أحد عمال التنظيفات قال: "نحن طبقة مسحوقة، نطلب رغيفاً نظيفاً في يد نظيفة. هناك وساطات ورشاوي تؤثّر علينا...".

تركّزت تساؤلات عمال الدولة والبلديات ومطالبهم في ثلاثة أمور: الوضع المعيشي والاقتصادي السيئ، والخدمات القليلة التي تقدمها النقابة، ووضع العمال في شركة جبل قاسيون التي تضم أكثر من سبعة آلاف عامل. ولوحظ أن تذمّر هذه الفئات المسحوقة يختلف في جوهره عن تذمّر البورجوازية الصغيرة ذات المطالب الأخرى. كما لوحظ أن قادة النقابة حاولوا امتصاص نفقة العمال وتذمّرهم، بأساليب وطرق بدا واضحًا أنّ الجالسين على المنصة يتذمّرونها.

جرى الحديث كثيراً أثناء المؤتمر عن دور الوساطات في الإفساد، وعن مشاعر الخيبة منمن ليس له سند يوصله إلى حقه. ونقل ما قاله أحد العمال: "في الوساطات ألو يا فلان دبلي فلان. أو يأخذ كرت فيذهب إلى شاليهات العمال في البسيط. نحن بدننا شيء مهم من الشاليهات، بدننا صيدليات ومستشفيات... إلخ".

الحالة التاسعة: من مهندس زراعي إلى مساعد مصور ودهان⁽¹²⁾

(س) من مواليد 1956، تخرج في كلية الهندسة الزراعية عام 1980. وقام بخدمة العلم لمدة سنتين، ثم عمل مهندساً زراعياً في محافظة السويداء لمدة خمس سنوات. تزوج من فتاة عام 1985 حاصلة على شهادة البكالوريا، وتدرس في كلية الحقوق في الصف الثاني. وبعد الزواج، تركت الدراسة وأنجبت طفلين، وهي الآن ربة منزل.

وجد (س) أنّ راتب المهندس الزراعي لا يمكن أن يعيشه مع عائلته، وبحسب تعبيره قال: "ما عادت توفي معي". فاستقال من الوظيفة بصفة مهندس، وأخذ يعمل مع أخيه "مساعد مصور فيديو"، إذ ينضمّ ناقلاً أشرطة الكهرباء وراء مصور الفيديو في الحفلات. وتبلغ أجرته الشهريّة من هذا العمل المسايّي عندما تتوافر الحفلات مقدار 5000 ل.س، في حين أنّ راتبه الشهري بصفة مهندس لم يتجاوز 4000 ل.

11 مقتبسات من مؤتمر نقابة مستخدمي الدولة والبلديات المنعقد في 18/2/1981، في مبنى اتحاد نقابات عمال دمشق.

12 شاب دمشقي، مقابلة شخصية، دمشق، 5/2/1992.

س. إلى جانب ذلك، قام (س) بعمل دهان في البيوت، وكانت هذه مهنة والده سابقاً. يُحصل (س) من مهنة الدهان من ألفين إلى ثلاثة آلاف لس شهرياً. معنى ذلك أنّ أجراه تضاعف مقارنة بالعمل في الهندسة الزراعية، مع ملاحظة أنه في عمله الجديد يبذل جهداً يفوق ثلاثة أو أربعة أضعاف الجهد في الهندسة الزراعية.

يقطن (س) في بيت بالأجرة في دمشق مؤلف من غرفتين ومطبخ في دار قديمة. وأمله في الحصول على بيت ملك مغلقة أبوابه، فما يتقاضاه لا يكاد يكفي الحاجات اليومية.

الحالة العاشرة: "مهنة الدهانة ومشاعر التهميش"

الاسم أبو إلياس⁽¹³⁾ من مواليد 1951 في بلدة صدد إلى الجنوب الشرقي من حمص. كان والده عامل نول يدوى يصنع البسط و"العي" (العباءات). وكانت هذه مهنة معظم سكان صدد، فقد كان أفراد العائلة جميعهم يقومون بتحويل صوف الغنم يدوياً إلى خيوط، ومن ثم حياكته وبيعه إلى البدو والفالحين في القرى المجاورة. وبعد تغير مهنة الحياكة بسبب تغير الأزياء ومنافسة الأتوال الآلية للنول اليدوي، أخذ أهالي صدد في الهجرة إلى لبنان ومدينتي حمص ودمشق للبحث عن العمل والوظيفة.

بعد هجر مهنة الحياكة، عمل والد أبي إلياس عاملاً زراعياً في لبنان، ولحق به ابنه البكر الذي أنهى الصف الخامس للعمل معه. وبعد مدة، انتقل ابن البكر إلى دمشق، وعمل في أحد معامل "الكاروزز"، ثم في الشركة الخاميسية للنسج، وتزوج ممرضة، وسكن في غرفة ملك لأهل الزوجة.

أما محدثنا أبو إلياس، فأتم دراسة الصف التاسع في صدد، ثم يمّ شطر دمشق، وسكن مع أخيه، وبدأ يعمل في مهنة الدهانة حتى تاريخ اللقاء.

تزوج أبو إلياس فتاة خريجة المعهد المتوسط الصحي، وهي تعمل في وزارة الصحة براتب شهري قدره 3000 ل.س. أما أجراه أبي إلياس فهي يومية وتصل أسبوعياً إلى 5000 ل.س إذا توافر العمل. وليس لأبي إلياس أي ضمان صحي أو تأمين.

يسكن أبو إلياس أثناء اللقاء به في حي الدويلعة الفقير إلى الجنوب الشرقي من دمشق. والمساكن في الدويلعة غير مرخصة للبناء من بلدية دمشق. يسكن أبو إلياس في غرفة أجراها 600 ليرة، وهي ملك لقريب له من صدد. مالك البيت كان شرطياً استطاع بناء البيت والسكن فيه وتأجير الغرف الزائدة إلى أبناء بلاده. وفي تاريخ اللقاء كان يسكن في الدويلعة أكثر من 600 شخص من صدد يعملون جميعهم في مهنة الدهانة. وعلاقتهم بعضهم قوية، غالباً ما يتم الزواج من داخلهم. فكأنّ قسماً من صدد انتقل إلى دمشق، بعد تغيير أداة العمل من مكوك النول إلى فرشاة الدهان.

رفيق أبي إلياس واسمه جوزيف هو دهان أيضاً ومن مواليد دمشق عام 1965، ولكن جذوره تعود إلى صدد ويعود نفسه صدّياً. فقد قدم والده إلى دمشق عام 1959، وتطوع في الجيش وأنجب خمسة ذكور وبنّا، وتوفي في سن مبكرة. ولذا فإنّ جوزيف وأخاه الذي يعمل في فندق الفاندوم يعتقدان أنهما مسؤولان عن تربية إخوتهما بمساعدة راتب أبيهما التقاعدي. وكان الوالد تمكّن، بفضل التوفير من راتبه في الجيش، من بناء غرفتين مع منافعهما في الدويلة. ويفكر جوزيف في بناء غرفة على سطح الغرفتين، لعله يتمكّن من الزواج إذا توافر السكن. حصل جوزيف على شهادة البكالوريا، وانتسب إلى الجامعة قسم اللغة الفرنسية، ولكن ضيق ذات اليد وصعوبة تعلم الفرنسية دفعتاه إلى ترك الدراسة الجامعية والانصراف إلى مهنة الدهانة.

وعندما سألت جوزيف، وهو مثقف ويقرأ كتب الأدب والروايات، عن عدم تمكّن "الصّدّيّة" من التّحول إلى متعهدين للدهان في البيوت، أجاب: "إنّ العزلة وعدم معرفة الناس في الأحياء الغنية والمتوسطة هي التي تجعلهم مجبرين على العمل تحت إشراف متعهد له صلات، وكان في الأصل دهّاناً وتحول إلى متعهد، ولكنه كثيراً ما يشاركونه العمل".

هؤلاء "الصّدّيّة" الذين سكنوا في الدوبيعة والطّبالة وأكثريّة سكانها مسيحيّون، بنوا علاقات حسنة مع الحوارنة المسيحيّين القادمين من سهل حوران وجبله (جبل العرب).

وعلى الرغم من ضعف خدمات البلدية في هذه الأحياء العشوائية، وعدم وجود مراافق عامة فيها، فإنّ أبا إلياس وجوزيف أكدا أنهما لا يشعّان أنّهما مهمّشان. فهما بحسب نظرهما يعيشان في حيّ مستوى الناس الاجتماعي فييه متشابه، والجميع أصحاب مهن أو موظفون صغار. وملّاك هذه البيوت المؤلّفة من طابقين وغير المرخصة من البلدية يسكنون مع المستأجرين ومستوى الجميع متماثل. ولا يوجد في الحيّين مطاعم أو نوادي، وهم يقضون أوقات الفراغ في الزيارات وشرب الشّاي أو "المتّة" ولعب ورق الشّدة.

الحالة الحادية عشرة: "التهميش ليس أزلياً"

كان والد حسن⁽¹⁴⁾ فلاحاً فقيراً توفي عام 1970. وعاش بفضل مساعدة أخيه إلى أن بلغ أشدّه. وبعد أن أنهى حسن الخدمة العسكريّة عام 1977، كان حارّاً لا يعرف ما يعمل. وبحسب تعبيره: "طلعت من الجيش وأنا أضرب كف على كف"، تعبيراً عن غموض مستقبله. ولكن أبواب العمل كانت في أواخر السبعينيات مفتوحة أمام الشباب فتوظف في الأعمال الإنشائيّة لمدة 13 شهراً، ثم في الشركة العامة لتنفيذ المشاريع الصناعية في السويداء. بعد ذلك عمل محاسباً لمدة أربع سنوات في الشركة العامة للبناء بدمشق، واستأجر غرفة في مخيم اليرموك مع أمّه وأخته اللتين كان يعيشهما.

في ربيع 1988، ذهب حسن إلى دبي، وعمل في أحد الفنادق مستفيداً من خبرته السابقة قبل خدمة العلم وبعدها، فقد عمل بين الحين والآخر في المقاهي، والتحق بثلاث دورات لتعلم اللغة الإنكليزية. عن شعوره في الخليج قال: "في لحظة من اللحظات تشعر نفسك لا شيء، وكانت أشواق شخص أشاكسه". ومن حصيلة العمل في دبي بني بيّتاً في قريته من أربع غرف ومتّفعتها، وعقد خطبه على معلمة، وهو يفكّر لما النّيّته في شراء محل تجاري صغير (دكان) أو مكتبة، والإقامة في قريته.

من خلال لقاءاتي مع كثير من شباب محافظة السويداء، يتبيّن في ما له علاقة بموضوعنا، ما يلي: يقيم (يعلم) في بلدان الخليج أكثر من ثلاثة آلاف شخص (شاب) من الدروز. القاسم المشترك بين هؤلاء هو العودة إلى "الجبل" أي جبل الدروز⁽¹⁵⁾. و"الجبل" عندهم يصل حد التقديس، وبناء بيت في الجبل هو أول أمنية للمغترب⁽¹⁶⁾. والبيت يجب أن تتصدره غرفة واسعة مفروشة وفق العادات، تسمى "المضافة"، وهي رمز الوجاهة وإثبات الذات، وفيها تقام الولائم (العزائم)، وهي من العادات الاجتماعيّة المتأصلة لديهم.

واللافت للنظر أنّ من كان مهمّشاً قبل السفر يسعى بعد عودته لمحو تاريخ تهميشه وفقره عن طريق الإسراف في فرش المضافة، والإتفاق على الولائم، والتّباهي بالسيارة الفارهة، لدفن ماضيه المهمّش قبل سفره من جهة، وتناسي وضعه الأكثر تهميشاً في بلدان الخليج من جهة أخرى.

14. حسن، مقابلة شخصية، محافظة السويداء، 20/5/1990.

15. المقصود بالجبل هو جبل الدروز الذي تحول اسمه عام 1937 إلى جبل العرب، تأكيداً لروح الوطنية المتشعّشة في أرجاء سوريا في تلك الفترة. وتاريخياً، كان الجبل معروفاً باسم "جبل حوران"، وكاتب هذه الأسطر أنشأ كتاب العامية والانتفاضات الفلاحية في جبل حوران (1850 - 1918)، عن ثورة الفلاحين الدروز ضد مشايخهم عام 1888، المعروفة بالعامية.

16. وهذه الحالة تسرى أيضاً على مغترب دروز جبل حوران إلى فنزويلا، وحملهم بناء بيت في "الجبل".

وهذا ما أكدته حسن بأنه مرّ بعدد من مراحل حياته شعر فيها بأنه مهمش. أي إن التهميش يمكن أن يستمر لفترة ثم يزول، وكثيراً ما يطّلّ برأسه من جديد.

أثناء جولاتنا الميدانية في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، لكتابة تاريخ الفلاحين، لاحظنا أنّ أعداداً كبيرة من العائدين من بلدان الخليج يحملون في قرارة أنفسهم عقد التهميش الذي عانوه في بلدان النفط. ونضرب بعض الأمثلة على ذلك:

- ❖ مناطق وادي الفرات: نرى أن العائدين، وجيوبه مليئة، يسعى للزواج من ابنة شيخ عشيرته، وينفق ما جمعه على "سياق عروسه" والحفلات التي يقيمها، ثم يعود ثانية إلى الخليج فارغ الجيوب.
- ❖ جبال القلمون: ثمة أمثلة لا تحصى عن سلوك العائدين وتصرفاتهم، وهم يتعنتون ويبذخون بلاوعي، لتفطية ما عانوه قبل السفر إلى الخليج وأثناءه.
- ❖ سهل حوران: التقى فيه عدداً من العائدين من الخليج، وهم ينفقون بلا حساب على مضافاتهم و"عزائمهم" ويقومون بتصوير ذلك على الفيديو للتباكي أمام ضيوفهم. ويمثل كاتب هذه الأسطر عشرات الأمثلة عما شاهده أثناء جولاته الميدانية في الأرياف السورية.

الحالة الثانية عشرة: الإنجاب والتهميش في قرى "البدو المستوطنين"

عند سؤال أم جاسم⁽¹⁷⁾ عن عمرها، أجبت: "عمرى والله ما بعرف أربعين خمس وأربعين". وهي من عشيرة "حرب" إحدى العشائر المتنقلة إلى الشرق من غوطة دمشق، ثم استقرت في أوائل السبعينيات في عدة قرى من المرج منها البياضية بالقرب من مطار دمشق الدولي. والدها راعي غنم، ونقل كلامها: "كان راعي يشارك الشوام. الشامي يعطي الغنم للبدو، ومن كل 12 فطيمة اثنتين للراعي. كان عندنا جمال يرجدون (ينقلون على ظهورها) عليها الزرع بالأجرة. أيام الوحدة (تقصد الوحدة السورية المصرية بين عامي 1958 و1961) انتهت الجمال. مع بيوت اللبن انتهت الجمال⁽¹⁸⁾. كان عندنا على دور أبوى 3 جمال".

مضى على زواج أم جاسم - أثناء الحديث معها - 23 سنة. وزوجها كان راعياً ومن عشيرتها، عشيرة حرب. عند زواجه كان يسكن بيته من اللبن مؤلفاً من ثلاثة غرف. وبعد أن كثّر أولاده وكبروا قاموا مكان والدهم في رعاية الغنم. يشرف زوج أم جاسم على تربية أربع بقرات، يبيعون حليبها إلى جامعي الحليب الذين يباعون الحليب في دمشق. وقد استخدمت تعبير الإشراف على تربية البقر، مع العلم أنّ العباء الحقيقي في رعاية البقر يقع على كاهل أم جاسم.

التقينا أم جاسم في إحدى مزارع المليحة في غوطة دمشق، وهي تجمع الحشائش للبقر. وبعد أن ملأت كيساً كبيراً، حملته على ظهرها، وسارت في اتجاه بيتهما في قرية البياضية التي تبعد مسافة طويلة عن المزرعة.

يعمل في هذه المزرعة بالأجرة في المليحة ابنها أم جاسم. وعندما سألهما لماذا لا يساعدان أمهما في نقل كيس الحشيش من المزرعة إلى بيتهما في البياضية؟ أجاب أحدهما: "عيّب نحنا نشتغل هييك شغالة. وإذا أردنا مساعدة أمّنا هي ترفض". وهذه ظاهرة عامة عند الفلاحين من ذوي الأصل البدوي الذين يتركون هذه الأعمال للمرأة، وهي لا تجد غصاً في هذا العمل. والمرأة لا تشعر بأنّها مهمشة أو مضطهدة فهذا، في اعتقادها، هو قدرها، وليس لديها أي طموح إلى تحسين وضعها. وأثناء النقاش علق أحد أبنائهما: "هذه حياتنا ونحن مبسوطين فيها". أي إنّهم مسرورون من هذه الحياة على هذا التحو.

17 أم جاسم، مقابلة شخصية، 20/6/1992.

18 تقصد عندما بنينا البيوت من اللبن وتركنا الخيام، بعثاً الجمال التي انتهت دورها مع حلول السيارة محل الجمال في النقل.

لأم جاسم ابنة عمرها (18 - 19) سنة، وزواجها مرتبط بزواج أختها، وهي تقول بحسب ما نقلت أمها: "بعد أن أفرج في أخي أتزوج". وهذه البنت عاملة زراعية بالأجرة. وهي ليست وحدها تمارس هذه المهنة، ففي البياضية أكثر من مئة بنت يعملن عاملات زراعيات في بساتين الغوطة الشرقية. ويوجد في قرى المرج إلى الشرق من الغوطة نساء ذوات نفوذ يقمن بدور الوسيط بين الفتيات الراغبات في العمل وصاحب المزرعة الباحث عن قوة عمل موسمية. ويُطلق على هؤلاء النساء اسم "معلمة"، وهي التي تجمع الفتيات أو النساء وترسلهن إلى أماكن العمل في بساتين الغوطة وتأخذ عمولة خمس ليرات عن كل عاملة تأتي بها إلى بساتين العمل. وأعداد العاملات الزراعيات كبير، وبعدهن يأتي من قرى ريف دمشق الفقير، والآخريات من الفلاحات ذوات الأصل البدوي من المرج. وما تجمعه العاملة الزراعية، إما أن يبقى لها، وإنما يأخذها والدها، وغالباً ما تجري القسمة بين الأب وابنته. أما بعد زواج الفتاة، فيتعلق عمل المرأة برغبة الزوج أو الحاجة إلى النقود.

أولاد أم جاسم مهنيون نفسياً للعمل في مزارع الغوطة، وهم لا يشعرون أنهم مهمشون، ويبدو السرور والبهجة على محياهم، ويجدون أن وضعهم أفضل بآلاف المرات من الأجيال التي سبقتهم، وكانت تعيش في الخيام متقلحة لرعي الغنم أو الجمال.

لأم جاسم ثمانية بنين وبنات وأصغرهم عمره ستة، وكما بدا لي أن المولود التاسع على الطريق. لا تختلف حالة أم جاسم عن حالة 150 بيتاً (أسرة) تسكن في قرية البياضية وعدد من القرى المجاورة لها. والأسرة هنا تتألف من 10 إلى 12 فرداً، وهي متتماسكة عموماً، تشدّها تقاليد بقایا نظام الأسرة الأبوبية (البطريريكية). وغالباً ما تبقى الأسرة متتماسكة وبقى الشباب بعد الزواج يعيشون في كنف والدهم وسلطته الضعيفة أو القوية. ويلاحظ من ناحية أخرى أن كثيراً من الشباب أخذوا بعد الزواج ينفصلون عن آباءهم، إذا كانت أوضاعهم المالية تسمح بذلك، ويبقى شيخ العشيرة وقد تحول إلى مختار للقرية، يقوم بحل المشكلات الصغيرة، ويعيش على أكتاف أولاده. وتکاد تندم الفروق الاجتماعية (الطبقية) داخل هذه القرى.

الحالة الثالثة عشرة: الإنجاب والتهميش في قرى سهل الغاب

(س)⁽¹⁹⁾ من مواليد 1922 في إحدى القرى الجبلية المطلة على سهل الغاب. ورث (س) عن والده بيت سكن ريفياً وكرماً زيتوناً وكرم عنب. لم يدرس عند الخطيب في "الكتاب"، ودخل يافعاً ميدان العمل في إحدى مزارع سهل الغاب. وبعدها اشتغل في تهريب الدخان من الساحل إلى الصقيلية عاصمة الغاب، ومنها يُنقل إلى حماة. كانت شركة الريجي تحتكر زراعة الدخان (التبغ) وتصنيعه. ولكن مهربى الدخان كانوا متافقين مع مخافر الدرك على دفع عشر ليرات سورية عن كل نقلة دخان تم محمّلة على الدواب. بعد قضاء زمن في التهريب، عاد (س) إلى العمل بأجر في الزراعة. وبعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي حصل في منتصف السبعينيات على أرض من الإصلاح الزراعي يدفع عنها سنوياً أجرًا زهيداً.

انجبت زوجة (س) 14 ولداً، تسعه ذكور وخمس إناث. ولدينا قائمة بعمل كل منهم، ونكتفي بالخلاصة والانطباع العام عن هذه الأسرة الكبيرة التي يعمل ذكورها الكبار في المدن بدخول محدودة، وتعيش الأسرة بفضل أرض في الغاب مساحتها 25 دونماً مستأجراً من الإصلاح الزراعي بسعر زهيد فيما يُعرف بالرخصة، وتُزرع قطنًا وشوندراً وقليلاً من الحبوب. إضافة إلى ذلك، تملك الأسرة قطبيعاً من الماعز يرعى في الجبال برعائية أحد الأولاد، وعدداً من الأبقار يراوح بين اثنتين إلى أربع بقرات.

يلاحظ في هذه الأسرة أن من تعلم وحاز البكالوريا لم يتمكن من الزواج حتى تاريخ اللقاء، بعكس الأولاد الذين لم يتعلموا، تزوجوا وإنجباً ويعيشون مع أبيهم حياة ذات مستوى متدن.

هذه الأسرة التي تحسن وضعها المعيشي عن السابق تحسناً ملحوظاً، لا تزال، مقارنة بالأسر الأخرى الأقل إنجاباً، في أسفل السلم الاجتماعي. وقد وصف ابن البكر وضع أفراد الأسرة بالعبارة التالية: "لا هُم عايشين ولا هُم ميتين".

الفائض السكاني من هذه الأسرة من الشباب، وعدهم ثلاثة، هاجروا إلى دمشق، ويسكنون في "مدن القصدير"، في مستوى معيشي متدين مع آفاق مستقبلية مسدودة.

وفي القرية، أصبح الأب أشبه برب عمل يُسّير أولاده إلى الرعي أو العمل الحقل، ولا يمارس أي عمل جسمي. أمّا الأم فيقع عليها عبء العمل المنزلي ورعاية الأبقار. ومع أنها منهكة تعباً، فهي ذات وجه بشوش، ترى أنّ الدنيا هكذا خلقها الله، وهي فخورة بما انجبته من شباب وفتيات.

الحالة الرابعة عشرة: الإنجاب والتهميشه في قرى الساحل

الاسم (س)⁽²⁰⁾ من مواليد 1961 في إحدى قرى سهل اللاذقية. يملك والد (س)، وهو من مواليد 1938، عشرة دونمات مروية بمياه الأبار عن طريق الضخ. يزرع الخضار الباكورية والأشجار المثمرة (الليمون، والبرتقال) ويبيع المحصول إلى أحد تجار سوق الهال في اللاذقية. وكما هو العُرف يُدّين التاجر الفلاح ما يلزمته من نفقات، بشرط أن يُسوق الفلاح إنتاج موسمه للتاجر الذي يحدد السعر. يشعر والد (س) بوطأة علاقته مع التاجر الذي يستغله، وهو مضطّر إلى التعامل معه.

والدة (س) تقوم بالأعمال المنزلية ورعاية الأبقار. وكل أسرة تملك من 2 إلى 6 بقرات. ودخل البقرة أفضل من دخل الأرض، ولذا يُعْتَنِي بالأبقار التي تتكلّف جهداً ووقتاً. وكما هو الحال في الأرياف الأخرى، الزوجة منهكة متعبة توزع وقتها بين العمل المنزلي، ورعاية الأبقار، والمساعدة في الحقل.

المعلومات التالية عن الأسرة أخذناها من (س)، وننقل ملخص ما فاته عن الأسرة:

• (س) كما ذكرنا من مواليد 1961، موظف راتبه 3000 ل.س. يسكن في بيت عمره في أرض والده وبمساعدة الوالد. يحمل شهادة البكالوريا وشهادة معهد متوسط، وهو الوحيد في الأسرة الذي حصل على البكالوريا، متزوج وزوجته لا تعمل ووصلت إلى الصف التاسع.

• الأخ الأول لـ (س) متطلع في الجيش ووصل إلى الصف السادس. يعمل في دمشق، وزوجته تقيم في القرية في كنف الوالد وفي مسكن بُني بمساعدة الوالد. له ثلاثة أولاد، ويزور أسرته كل شهر. وقال (س) عن أخيه إنه "عايف الله تَبَعَهُ"، أي أنه متعب بسبب السفر، مثقل بالهموم، ولا مستقبل سعيد أمامه.

• الأخ الثالث فلاح يعمل مع والده، وهو من مواليد 1970، ولا يزال عازباً في تاريخ إجراء اللقاء. وهو يتنتظر أن يبني له والده بيّناً، كما بني لأخيه. وهو يعمل في أرض والده من جهة، وفي أرض الجيران بالأجرة من جهة أخرى. وهذا النموذج منتشر في كل سهول الساحل.

• الأخ الرابع فلاح أيضاً، وهو من مواليد 1971، ولا يختلف وضعه عن وضع أخيه الثالث، أي العمل في حقل أبيه والعمل بالأجرة في أرض الجيران الذين لا يملكون قوة عمل كافية. وهو يتنتظر بناء والده مسكنه له كي يتمكن من الزواج.

• الأخ الخامس يقوم بخدمة العلم ومصروفه من والده. وبعد الخدمة العسكرية، سيصبح وضعه كأخوه السابقين. وبحسب تعبير (س) "سيصُفُ على الدور" في انتظار بناء المسكن والزواج.

• الأخ السادس تشبه حالته حالة أخيه، وهو يعمل بالأجرة في أرض الجيران.

• الأخ السابع تلميذ في الصف السابع، ويشترك في العمل الحقل وفِي تربية الأبقار.

✿ الأخت الأولى تعلّمت حتّى الصف السادس، وهي تساعد أمّها في البيت. وقد عقدت خطبتها على شاب فلاح من جهة، وحلاق من جهة أخرى.

✿ الأخت الثانية وصلت إلى الصف السادس، وهي مخطوبة لشاب فلاح ونجار باطون (عامل بناء).

✿ الأخت الثالثة لم يستطع (س) تحديد الصف الذي وصلت إليه قائلاً: "والله ما يعرف الصف الرابع أو الخامس".

✿ الأخت الرابعة تلميذة في الصف الثالث.

✿ الأخت الخامسة تلميذة في الصف الثاني.

يُعدّ والد (س) وأسرته من الفئات الوسطى في القرية، وملكنته، كما ذكرنا، لا تتجاوز عشرة دونمات مروية من موتور (مضخة) أمسى مستهلكاً لقدمه. والوالد لا يستطيع شراء موتور جديد ثمنه 20 ألف ل.س. ومعنى ذلك أنّ والد (س) سيشتري مياه الري لأرضه من جاره. ولأفراد الأسرة مهنة أخرى في أوقات فراغهم وهي صيد السمك البحري، لتأمين غذاء للأسرة، وبيع الفائض وشراء لحم الفروج (الدجاج).

وهكذا، نلاحظ أنّ من لديه أسرة كبيرة وأرض محدودة يقوم أفرادها بالعمل في أرض الجيران المالكين لساحات أوسع، يصل بعضها إلى ستين دونماً. وغالباً ما يرسل صاحب الأراضي الواسعة أولاده إلى مدارس المدينة لتلقي العلم، ومن ثم العمل في المدينة.

وويرى (س) أنّ فكرة تحديد النسل أصبحت منتشرة بين الشباب الذين أدركوا أنّ كثرة الإنجاب لها سلبيات كثيرة.

خاتمة

لاتزال -بحسب علمتنا- الدراسات المتعلقة بالهامشيين محدودة، وحقل العمل في هذا الميدان لا يزال بكرّاً. كما لا يزال مفهوم الهامشيين ملتبساً غير واضح المعالم. وكاتب هذه الأسطر قام بهذه المحاولة، استمراً لأبحاثه السابقة المتعلقة بالفئات والطبقات الاجتماعية⁽²¹⁾ التالية:

✿ البورجوازية الوطنية الصناعية المنتجة ودورها في التنمية وفي مقارعة الرأسمال الأجنبي، ثمّ ضمورها، إذ حلّ محلّها بورجوازيات طفيلية وبيروقراطية تأكل الأخضر واليابس، تصاعدت وتيرة التهميش في عهدها.

✿ الطبقة العاملة وإرهاصات تكؤنها وتطورها، وقيام النقابات العمالية في منتصف القرن العشرين، ثمّ ذبولها وما وصلت إليه في هذه الأيام العجاف.

✿ الحرفيون وورشاتهم وشراحتهم ودورهم في عملية التنمية. كما خاض كاتب هذه الأسطر غمار البحث في تحركات العامة في كل من دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وعمودها الفقري الحرفيون من معلمين وصناع وأجراء.

✿ الفلاحون وملّاك الأرض (الإقطاعيون) والصراع بينهم، والإصلاحات الزراعية وتأثيراتها، والأوضاع الحالية في الأرياف بعد هجمات "الليبرالية الجديدة" واتساع دائرة العمل الطفيلي وأثاره المدمرة.

✿ المثقفون وشراحتهم، ودورهم في المجتمع والدولة.

21 انظر: عبد الله هنا، الفلاحون وملّاك الأرض في سوريا القرن العشرين (بيروت: دار الطليعة، 2003)؛ وملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري، العصر الحديث المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني حتى الاستعمار الفرنسي (دمشق: د.ن.، [1980])؛ والحركة الشيوعية السورية الصعود والهبوط (دمشق: دار نون، 4، 2008)؛ والحركة العمالية في سوريا ولبنان 1900-1945 (دمشق: دار دمشق، 1973).

والآن، أتى دور الهاشميين والأبحاث المتعلقة بهم قليلة، ولهذا رأينا إطلاق العنوان لـ "العقوبة" من جهة، والسير بالدراسة على وفق ما تملية المعلومات التي جمعتها خلال الدراسات الميدانية من جهة أخرى. ومعظم من التقى بهم لم تكن لديهم فكرة عن التهميش، والواعون منهم خلطوا بين الفئات الرثة والمهمشة، لأن الحدود الفاصلة بينهما ليست أسوأً عالياً، إضافة إلى عدم استقرار الهاشميين صعوداً وهبوطاً. تكمن أهمية هذه المقابلات مع المهمشين في تتبع الحراك الاجتماعي المختلط الأوجه، والذي يجعل من دراسة المهمشين مسألة خاضعة للنقاش، لا يمكن كتابة التاريخ الاجتماعي من دونها.



References

المراجع

- الخفاجي، عصام (مشرف). *هاشميون في المدن العربية*، مجلة جدل، العدد 4 (1993).
- كرامة، منير. "مراجعة كتاب الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث لـ محمد يحيى كمال" ، *مجلة الفكر العربي*، العدد 39 / 40 (حزيران 1985).